

المضامين التفسيرية لقصة سبأ وسيل العرم (دراسة موضوعية)

إعداد: د. محمد تاج الدين جلال (*)

مستخلص:

المضامين التفسيرية لقصة سبأ وسيل العرم دراسة موضوعية، جاء هذا البحث في مقدمة ومبحثين، المبحث الأول وفيه الحديث عن سيدنا داؤود وسليمان عليهما السلام ونعم الله عز وجل عليهما بالإيمان والقوة والمنعة ومقابلة هذه النعم بالشكر والإيمان، والمبحث الثاني تناول فيه الباحث المضامين التفسيرية لقصة سبأ وسيل العرم، وكيف بدل الله حالهم من نعمة إلى نعمة وذلك بكفرهم نعم الله عز وجل ثم الخاتمة.

Abstract

This paper is entitled the explanatory contents of the story of sapa and seaL Al aram in aninroduction researchers and consclusion. The first article deals with the talk of prophets Daod and Suleiman peace be unpo them The second research paper in which the researcher dealt with the explanatory of the story of sapa an seal Al-aram Then conclusions and recommendations

(*) محمد تاج الدين جلال، أستاذ مساعد بكلية أصول الدين، تخصص التفسير وعلوم القرآن، جامعة أم درمان الإسلامية.

مقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم وأصلي وأسلم على نبي الرحمة معلم البشرية سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى آله الأخيار والأطهار، وصحبه الكرام مصابيح الهدى، وأهل الفضل والتقى رضوان الله عليهم أجمعين وبعد:

قوم سبأ هم قوم بلقيس الذين دعاهم سيدنا سليمان عليه السلام إلى

دين الله عز وجل كما جاء الخبر عنهم في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿

إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) ﴾ [النمل: ٣٠] . وبما أن مضمون

الإيمان والقوة والمنعة وتسخير الأدوات والوسائل من أهم المضامين القرآنية الثقافية التي وردت في القصة - وكيف مكن الله عز وجل لداود وسليمان عليهما السلام الحكم في الأرض، جاء الحديث عن سيدنا داود

وسليمان عليهما السلام وكيف مكن الله عز وجل لهما قال تعالى: ﴿

يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة ص: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... مَا لِيُثْوَ فِي الْعَذَابِ

الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤- ١٠] .

وتأتي أهمية هذه القصة القرآنية لتوضح للناس أهمية الإيمان بالله

في هذه الحياة الدنيا وشكر نعمه وكيف بدل الله عز وجل قوم سبأ من

حالهم التي كانوا ينعمون فيها بشتى أنواع النعم إلى نغم حتى صار العرب

يضربون بهم الأمثال ، "تفرقوا أيادي سبأ" ، كناية عن التفرق التي لا

اجتماع فيه . وذلك بعد أن أعرضوا عن شكر الله والإيمان برسله قال

تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ ﴾ [سبأ: ١٥] تناولت فيها

الموضوع فقط من خلال الآيات من سورة [سبأ: ١٠ - ٣٧] وختام البحث

جاء بمضمون تسليية الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ، واعتداد

المشركين [بأموالهم وأولادهم ، وأنها لن تغني عنهم من الله شئياً . فجاء هذا البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة .

هيكل البحث

المبحث الأول : مضمون نعم الله عز وجل لسيدنا داود وسليمان عليهما السلام في القوة والمنعة والتسخير الإلهي والتأييد بالمعجزات .
- المطلب الأول : نعم الله عز وجل لداود وسليمان عليهما السلام في القوة والمنحة والفضل .

- المطلب الثاني : مضمون التسخير الإلهي والتأييد بالمعجزات .
- المطلب الثالث : مضمون السعي في الأرض وتمكين الإيمان الصادق وشكر النعمة .

المبحث الثاني : قصة سبأ وسيل العرم (١٥-٢١) قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾
المطلب الأول : مضمون أسباب زوال ثقافة وحضارة سبأ .
السبب الأول : الكفر والإعراض عن الله عز وجل .
السبب الثاني : الظلم والترف وغواية الشيطان .
المطلب الثاني : مضمون تسلية النبي صلى الله عليه وسلم واعتداد المشركين بأموالهم وأولادهم ؛ وأنها لن تغني عنهم من الله شيئاً (٣٤-٣٧)
قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ ٣٤]

المبحث الأول

مضمون نعم الله عز وجل لسيدنا داود وسليمان عليهما السلام في القوة والمنعة والتسخير الإلهي والتأييد بالمعجزات .

المطلب الأول: مضمون نعم الله عز وجل لداود وسليمان عليهما السلام في القوة والمنعة والفضل^(١) :

قال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا) من الجنود ذوي العدد وما أعطاه الله ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح له الجبال الراسيات الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغايات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات^(٢) . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال صلى الله عليه وسلم: (لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِّزَامِيرِ آلِ دَاوُودَ)^(٣) ، (يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ) التأويب: سير النهار كله، والسرى: سير الليل كله، اي ارجعي معه مسبحة والله أعلم^(٤) .

إن الاتصال اللفظي يجمع بين الألفاظ المنطوقة والرموز الصوتية كما يمكن أن تصبح ذات مدلولات أخرى عند التغيير في نبرة الصوت، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سمع أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ القرآن الكريم من شدة مالصوته من لذة: (لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِّزَامِيرِ آلِ دَاوُودَ)^(٥) .

(١) مصحف القيام مع التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم، الشيخ فياض واطلال

بشار ، ص٧٧

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، ص٢٤٣

(٣) صحيح: البخاري حديث رقم (٤٦٠) ، وصحيح مسلم حديث رقم (٧٩٣)

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص٢٤٣

(٥) سبق تخريجه

ويأتي مضمون التسخير للأدوات والوسائل لتسيير الحياة في قوله تعالى: (وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ) ^(١) أي: جعلنا الحديد ليلاً بين يديه حتى كان كالعجين، قال قتادة ^(٢): سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله النار، ولا يضربه بمطرقة وكان بين يديه كالشمع والعجين، وكان يفثله بيده مثل: الخيوط.

ولهذا قال تعالى: (أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ) ^(٣) وهي الدروع، قال قتادة هو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح، منها، ألفين له ولأهله وأربعة آلاف يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري ^(٤).
(وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ) أي قدر في نسج الدروع بحيث تتناسب في حلقاتها، يقول الصاوي ^(٥): جعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها. وجعل الكل بنسبة واحدة ^(٦)، وهذا إرشاد من الله لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع ^(٧)، (وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، لأنني مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفي على من ذلك شيء ^(٨).

(١) سورة سبأ الآية: ١٠

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي هو أبو الخطاب تابعي وعالم في اللغة العربية وأيام العرب والنسب محدث مفسر، حافظ، علامة كان ضريراً أكمه وكان يقول: (ما قلت لمحدث قط أعد لي وما سمعت إذناي قط شيئاً إلا وعاه قلبي)، توفي سنة ١١٨هـ.

(٣) سورة سبأ الآية: ١١

(٤) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٤٣

(٥) هو أحمد بن محمد الصاوي المالكي الخلوتي المتوفي سنة ١٢٤١هـ، مالكي المذهب من مؤلفاته: حاشية على تفسير الجلالين، كتاب بلغة السالك لأقرب المسالك،

(٦) حاشية الصاوي، بتفسير الجلالين ص ٦٠٠

(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير مصدر سابق ص ٢٤٣

(٨) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٤٤

المطلب الثاني: مضمون التسخير الإلهي والتأييد بالمعجزات^(١) مضمون التسخير بالمعجزات:

إذا كانت الثقافة هي جملة العادات والمواقف المكتسبة لدى الفرد من المجتمع، أو أنها الصيغ التعبيرية للمجتمع وتاريخه، أو السلوك المميز للمجتمع وأفراده عن المجتمعات الأخرى، لتحقيق الاندماج والتكيف بين أفراده، خدمة لقيمه ومعتقداته فإن الثقافة في الإسلام لها محاور كثيرة أو دلالات عديدة تخدم تلك الأهداف، قال تعالى: (وَلَسْلِمَانُ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَاحُهاً شَهْرٌ) وهذا عطف على ما أعطي ابنه سليمان عليه السلام من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر^(٢)، وسيرها من الصباح الي الظهر مسيرة شهر للسائر المجد، ومن ومن الظهر الي الغروب مسيرة شهر. قال الحسن البصري^(٣): كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر^(٤) يتغذى بها ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل.

وبين دمشق واصطخر وكابل شهر كامل للمسرّع^(٥)، (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) أي اذنباله النحاس فأجريت ثلاث أيام لبلياليهن كجري الماء، وعمل الناس الي اليوم مما أعطي سليمان^(٦).

(١) مفاهيم الاتصال في القرآن الكريم ودلالاتها، محمد صديق الزين علي، ص ١٥٠

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها

(٣) هو الحسن بن يسار البصري التابعي المتوفي سنة ١١٠هـ، إمام وقاضي ومحدث من علماء التابعين ومن أكثر الشخصيات البارزة في عصر صدر الإسلام، سكن البصرة.

(٤) اصطخر: هي مدينة قديمة تقع في جنوب إيران في محافظة فارس.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٤

(٦) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠١

مضمون التسخير للجن العاملة لمصلحة الانبياء.

(وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) اي ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان نذقه النار المستعرة في الآخرة، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجن من الأعمال.

وقد ذكر ابن أبي حاتم^(١) ههنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي صالح حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزهراء عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الْجِنُّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، صَنَفٌ لَهُمْ أَجْنَحَةٌ يَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَصَنَفٌ حَيَاتٍ وَكِلَابٍ، وَصَنَفٌ يَحِلُّونَ وَيُظْعَنُونَ)^(٢) رفعه غريب جداً.

مضمون التشييد والعمارة وأدوات التحضر:

ثم أخبر تعالى عما كلف به الجن من الأعمال فقال: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاطِيلٍ)، أما المحارِبُ فهي: البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن.

قال مجاهد^(٣): بنيان دون القصور، وقال الضحاك^(٤): هي المساجد، المساجد، قال قتادة: هي المساجد والقصور. وقال ابن زيد^(٥): هي

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي، يكنى أبا محمد، واشتهر بابن أبي حاتم، أصله من أصبهان ثم انتقلوا إلى الري وهي بلدة كبيرة من بلاد الديلم ولد سنة ٢٤٠هـ سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٥٠/١٣.

(٢) صحيح: صحيح الجامع (٣١١٤) للألباني رحمه الله

(٣) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، وهو تابعي وواحد من كبار المفسرين ولد سنة ٢١هـ / ٦٤٢م. توفي حوالي سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢م الأعلام للزركلي ٢٧٨/٥.

(٤) الضحاك بن مزاحم من بني هلال، وكنيته أبو محمد، واشتهر بأن أمه قد حملت حملت به سنتين كاملتين، وقد ولد وله أسنان، تهذيب الكمال للمزي ١٣ / ١٩١، ١٩٦.

(٥) ابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو عالم دين مسلم، له آراء وروايات كثيرة في تفسير الطبري ويقال له بن زيد، توفي سنة ٧٩٨هـ.

المساكن، وقال مجاهد: كانت من نحاس، وقال قتادة: من طين وزجاج^(١)، قال الحسن ولم تكن يومئذ محرمة، وقد حرمت في شريعتنا سدا للذريعة لئلاّ تعبد من دون الله^(٢).

المطلب الثالث : مضمون السعي في الأرض وتمكين الإيمان الصادق وشكر النعمة.

مضمون السعي لإعمار الأرض:

قال تعالى: (وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) وعن ابن عباس قال: (كَالْجَوَابِ) كالجوبة من الأرض^(٣)، (وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك، ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها. تتخذ من الجبال باليمن يصعد إليها بالسلاالم^(٤)، (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)^(٥) في الدين والدنيا، قال أبو عبد الرحمن السلمي^(٦): الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير عمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد^(٧). قال داوود: يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني^(٨).

مضمون الإيمان الصادق والعميق مع شكر النعمة:

- (١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٤
- (٢) المصدر السابق الصفحة نفسها
- (٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٥.
- (٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٢.
- (٥) شكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له على التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية.
- (٦) أبو عبد الرحمن السلمي هو أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي المتوفي سنة ٧٤هـ، كان مقرئ للقرآن الكريم وراوي للأحاديث النبوية.
- (٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٥.
- (٨) المصدر السابق الصفحة نفسها.

قال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) أي العامل بطاعتي شكراً لنعمتي هو شاكر، وفيه إخبار عن الواقع^(١). ومن هذا نقول: أن ذلك جانباً من الأمثلة للدلالات الثقافية في سورة سبأ للأمم السابقة في صورة مشاهد طبية^(٢). بناء العقل الإنساني بناءً سوياً: وذلك بحمايته وحفظه من الانحرافات الفاسدة والعقائد الضالة.

مضمون عدم معرفة الجن للغيب:

ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان عليه السلام فقال: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ) حيث عمي الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة فإنه مكث متكئاً على عصاه، وهي منسأته، كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم، مدة طويلة نحواً من سنة^(٣)، والجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة على عاداتها لا تشعر بموته، حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً^(٤).

قال تعالى: (مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْ سَأْتِهِ)^(٥) قال سليمان عليه السلام لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان! قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير وليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت^(٦). (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوَّ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) أي: فلما خر ميتاً تبينت الجن وانكشف لهم أنهم لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في العذاب المهين. لظنهم حياته. وعلم كونه سنة بحساب ما أكلته الأرضة من العصا بعد موته يوماً وليلة

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٤٤.

(٢) مفاهيم الاتصال في القرآن الكريم ودلالاتها، مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٤٥.

(٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٤.

(٥) بالهمز وتركه بألف تعني: عصاه، لأنها يسأ ويُطرد ويُزجر بها.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٧.

مثلاً^(١). قال المفسرون: كانت الإنس تقول: إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل، فوقف سليمان عليه السلام في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه فمات ومكث سنة كاملة والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته حتى أكلت الأرضة عصا سليمان عليه السلام .

فسقط على الأرض فعلموا موته، وعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب، لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة، وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت. ومن خلال المعنى الجامع للثقافة الإسلامية نورد ما ذكره الدكتور: عبدالرحمن إبراهيم محمد، فإن: مدلول تصحيح الثقافة الإسلامية: حيث يقول: تصحيح الثقافة الإسلامية من الأهداف التي بعث الله بها من أجلها الرسل لإخراج البشرية جمعاء من دنس الشرك والضلال للتركيب بإفراد الله وحده بالعبادة والإتباع^(٢). لأن اعتقاد الإنس بعلم الجن للغيب ورد أيضاً في قوله تعالى (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ^(٣) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ^(٤)).

فقوله تعالى على لسان الملائكة (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ) الآية فيه دلالة على أن هذه الثقافة السائدة إن صح التعبير أنها صححت بإثبات عدم علم الجن للغيب لعجزهم عن معرفة موت سليمان عليه السلام، وأن عبادة الإنس لهم كما في الآية باطلة.

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٤

(٢) الثقافة الإسلامية في مواجهة العولمة عبد الرحمن إبراهيم محمد الفكي، ط ١ ص ١٩ بتصرف

(٣) مصحف القيام مع التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم، الشيخ فياض واطلال بشار مصدر سابق، ص ٧٧

(٤) سورة سبأ الآية: ٤١-٤٢

المبحث الثاني

قصة سبأ وسيل العرم الآية (٢١-١٥) قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ

آيَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾^(١)

المطلب الأول: مضمون أسباب زوال ثقافة وحضارة سبأ:
فإذا كان ذلك جانباً من الأمثلة للدلالات الثقافية في الكتاب للأمم السابقة في صور ومشاهد طبية كما ذكرنا سابقاً، هنالك مشاهد لمظاهر الدلالات الثقافية غير الطبية مثل: حضارة سبأ^(٢)، وذلك لعدة أسباب نذكر منها مايلي:

السبب الأول: الكفر والإعراض عن الله عز وجل:
وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ^(٣) فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم، أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكنهم باليمن آية عظيمة دالة على الله عز وجل وقدرته على مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، مما يدل دلالة صريحة، أنهم كانوا على ثقافة يحتذي بها، ولكن هؤلاء القوم عملوا على جحد هذه النعمة لما كفروا نعمة الله بالآتي:

الكفر: يتنافى مع الهدف السامي لتحقيق المعنى الجامع للثقافة الإسلامية والذي بُعث من أجله الرسل كما ذكرنا سابقاً. ثم بين تعالى وجه تلك النعمة وفسرها^(٤) بقوله عز وجل: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ

(١) مصحف القيام مع التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم، الشيخ فياض وإطلال بشار مصدر سابق، ص ٧٧.

(٢) مفاهيم الاتصال في القرآن الكريم ودلالاتها، محمد صديق الزين علي، ص ١٥٠.

(٣) سبأ: حال بالصرف وعدمه، قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدهم: (سبأ بن يشجب بن قحطان)

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٩.

وقال البيضاوي^(١): ولم يُرد بستانين اثنين فحسب، بل أريد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله، سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها كأنها جنة واحدة^(٢). (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) اي قلنا لهم على لسان الرسل: كلوا من فضل الله وإنعامه، واشكروا ربكم على هذه النعم في أرض سبأ^(٣).

هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة ليس بها: سباع ولا بعوض ولا ذباب، ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. كريمة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم أمركم بشكره ورب غفور لمن شكره^(٤). (فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) أي: فأعرضوا عن طاعة الله وشكر، وإتباع أوامر رسله عليه السلام، فأرسل الله عليهم السيل المدمر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فأغرق بساتينهم ودورهم. الشرك: ولما أشركوا بالله وكذبوا رسله تسببوا بذلك في زوالهم حيث، يقول الطبري: وحين أعرضوا عن تصديق الرسل، ثقب ذلك السد الذي كان يحبس عنهم السيول.

ثم فاض الماء على جناتهم فغرقها، وخرب أرضهم وديارهم^(٥)، والعزم جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلي وقت

(١) البيضاوي: هو عبدالله بن عمر البيضاوي قاضي ومفسر، توفي سنة ٦٨٥هـ، من مؤلفاته: تفسير البيضاوي ويعد تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل أحد أهم التفاسير التي حظيت بقبول جمهور أهل السنة.

(٢) الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل للزمخشري، الجزء الثالث (مكتبة مصر - القاهرة) ص ٨٥

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٥

(٤) المصدر السابق الصفحة نفسها

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء الرابع عشر، (المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م) ص ٢٨٦ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٦

حاجته. قيل المراد بالعزم المياه، وقيل: الجرذ، وقيل الماء الغزير، فيكون من باب إضافة اسم إلى صفته مثل مسجد الجامع^(١).

مضمون الجزء من جنس العمل: (وَبَدَّلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِي أَكْلٍ خَمْطٍ^(٢)) أي بإضافة أَكْلٍ بمعنى: مأكول، بضم الكاف وسكونه، وترك اللام وتنوينه^(٣)، (أَكْلٍ خَمْطٍ) وهو الأراك وَاكْلُوهُ البربر^(٤) (وَأَثَلٍ^(٥) وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ^(٦) قَلِيلٍ ذَلِكَ^(٧)) أي وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسدر.

يقول الرازي^(٧): أرسل الله عليهم سيلاً غرق أموالهم، وخرب دورهم دورهم والخمط كل شجرة لها شوكة وثمرها مر، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه في بعض الأوقات والسدر معروف. وقال فيه: (قَلِيلٍ)؛ لأنه كان أحسن أشجارهم، وقد بين الله تعالى بالآية طريقة الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة

-
- (١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٤٩.
- (٢) الخمط: المر البشع وهو كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله فهو خمط وقيل: هوماتغير الي مالا يشتهي، واللبن إذا تغير فهو خمط.
- (٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٧.
- (٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠.
- (٥) اثل: الأثل: شجر لا ثمرة له، وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً، ومنه اتخذ منبر الرسول صلى الله عليه وسلم والواحدة منه: أثلة.
- (٦) سدر السدر: هو من النباتات، وهو نوعان سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عصفة لا تؤكل، وسدر: ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول.
- (٧) هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن عمر التيمي البكري الرازي الإمام المفسر صاحب تفسير مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير المتوفى سنة ٦٠٦هـ طبقات النسابين لبكري أبو زيد ت ١٤٢٩هـ الرشيد ط ١٤٠٧هـ ج ١ ص ١٢٣.

بسبب العمارة، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار^(١).
(جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا) أي الجزء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم^(٢)، قال مجاهد: لا يعاقب إلا الكفور، وقال طاووس: لا يناقش إلا الكفور^(٣)، (وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورُ)؟ لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته، والكافر يجازي بكل سوء عمله^(٤). ومن السورتين اللتين وردتا وردتا في القرآن الكريم تحكيان عن الدلالات الثقافية في القرآن وحكتا عن مشهد لصورتين من مظاهر الثقافة في الأمم السابقة بالصورة المطلوبة وأخري غير مطلوبة. فالثقافة هي نتاج تراكم التجارب الحياتية لعدد من الأجيال، في حين أنها في نفس الوقت تخدم عمليات الحياة هذه^(٥).

ولهذا السبب سرد القرآن الكريم تلك الدلالات للأمم السابقة للعبارة والعظة والاستفادة من تجارب الآخرين لتبيين المفيد منها وترك وهجر غير المفيد.

مضمون الهجرة والتهجير المحل بسبب الفقر.

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)، بحيث يقلون في واحدة وبيتون في أخرى، إلي انتهاء سفرهم لا يحتاجون إلي حمل وزاد وماء^(٦)، ولهذا قال تعالى: (وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) أي لا تخافون

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠.

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٧ و صفة التفاسير، مصدر سابق ص ٥٥١.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء الرابع عشر، (المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م) ص ٢٨٨.

(٥) وسائل الاتصال الاجتماعية، إسماعيل حاج موسي، (مركز البحوث الاستراتيجية، الخرطوم ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م) ص ٨٠.

(٦) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٧.

لا في ليل ولا في نهار^(١). حيث جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه^(٢)، حيث جعلنا السير بين قراهم وقرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية. (سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ) أي: وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون. يقول الزمخشري^(٣): كان الغادي منهم يقيّل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام، لا يخافون جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، وكانوا يسيرون آمنين لا يخافون شيئاً^(٤).

السبب الثاني الظلم والترّف وغواية الشيطان .

الظلم:

ويعتبر الظلم من أكبر عوامل سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل عريض يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة وعلاقات الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره. وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعم الفساد الحياة الإنسانية بأسرها^(٥)، لذلك قال تعالى: (وَضَلَلُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) أي جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم ومكرهم. وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع، والألفة والعيش الهنيئ تفرقوا في البلاد هنا وهناك، ولهذا تقول العرب

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠

(٣) هو صاحب كتاب الكشف أبو القاسم محمد بن عمر العلامة الخوارزمي النحوي توفي سنة ٥٣٨هـ بجر جانب خوارزم بعد رجوعه مكة بتصرف انظر سير أعلام النبلاء (٤٠/٣٩) وكذلك وفيات الأعيان (١٦٨/٥)

(٤) الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل للزمخشري، الجزء الثالث (مكتبة مصر - القاهرة) ص ٤٤٥

(٥) سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات، محمد هيشور، ص ٢٢٣

في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سباً، وأيدي سباً، وتفرقوا شذراً مذر^(١)، وفرقناهم في البلاد كل التفرق^(٢).

يقول تعالى عن الظلم: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)^(٣) وقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)^(٤) وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا*) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)^(٥).

وقوله تعالى: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ)^(٦). يقول ابن تيمية^(٧): (إن الله يقيم يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة)^(٨).

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أي إن فيما ذكر من قصتهم عبرة وعظات لكل عبد صابر على البلاء شاكراً في النعماء.

(١) الكشف للزمخشري مصدر سابق ص ٤٥٥

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٨

(٣) سورة هود الآية: ١١٧

(٤) سورة هود الآية: ١٠٢

(٥) سورة النساء الآيتان: ٩٧-٩٨

(٦) سورة إبراهيم الآية: ٤٥

(٧) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام شيخ الإسلام ولد بخران عام ٦٦١هـ وتحول وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر بها وسافر إلى مصر ثم رجع إلى دمشق ومات معتقلاً عام ٧٢٨هـ من أشهر مؤلفاته الفتاوى وغيره انظر الأعلام للزركلي (١٤٥٠-١٤٤٤/١).

(٨) الحسبة، ابن تيمية مرجع سابق، ص ١٧

والمقصود تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حل بمن قبلهم، ولهذا أصبحت قصتهم يضرب بها المثل كما ذكرنا سابقاً.

مضمون أخذ العبرة والعظة وكفران النعمة:

(وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) أي جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم ومكرهم وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع، والإلفة والعيش الهنيئ. تفرقوا في البلاد ههنا وهنالك، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيدي سبأ، وتفرقوا شذر مذر^(١)، وفرقناهم في البلاد كل التفرق^(٢)، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبرة وعظات لكل عبد صابر على البلاء شاكراً في النعماء، والمقصود تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حل بمن قبلهم، ولهذا أصبحت قصتهم يضرب بها المثل كما ذكرنا سابقاً.

أن الله تعالى ذكر السبب في ضلالهم فقال: (وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)، ولقد صدق بالتخفيف والتشديد، أي تحقق ظن إبليس للعين في هؤلاء الضالين. حيث ظن أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم وأقسم بقوله تعالى على لسانه (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)^(٣)، فتحقق ما كان يظنه. قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه ولم يعلم الغيب^(٤)، (إِلَّا) بمعنى لكن، وللبيان فإن المؤمنين لم يتبعوه^(٥). لأن الله تعالى وعد الإنسان بقوله:

(١) الكشف للزمخشري مصدر سابق ص ٤٥٥

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٨

(٣) سورة ص الآية ٨٢:

(٤) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، بتحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الجزء الثاني والعشرون الطبعة الأولى الأولي (دار عالم

الكتب، بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) ص ٦٠

(٥) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٩

وَعَزَّتِي وَجَلَّالِي لَا أَحْجَبُ الْإِنْسَانَ عَنِ التَّوْبَةِ مَا لَمْ يُغْرِغْ بِالْمَوْتِ وَلَا يَدْعُونِي إِلَّا أَجَبْتُهُ، وَلَا يَسْأَلْنِي إِلَّا أَعْطَيْتُهُ، وَلَا يَسْتَغْفِرُنِي إِلَّا غَفَرْتُ لَهُ^(١)، وهذا الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الترف:

الترف: هو التوسع في النعمة، قال: أترف فلان فهو مترف^(٢) وأترف فلان أصر على البغي^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: أولي الترفة، وأراد هنا رؤساءها

هو الدافع الرئيس الذي جعلهم أن يفعلوا ذلك ليتطاولوا على الفقراء والمساكين ولو لم يكونوا مترفين لما طلبوا من أن يباعد بين أسفارهم، وهذه إحدى الدلالات المهمة. (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) وفي قراءة بعد، بكفرهم^(٤)، وطلبوا ذلك ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء فبطروا النعمة^(٥).

وقف ابن خلدون^(٦) طويلاً في مقدمته عند مسألة الترف، واعتبر الترف حتمية ترتبط بعملية التحضر بانتقال الجماعات البشرية من البداوة والتنقل في الصحراء إلى الغني والحضارة والاستقرار. وعالج المسألة من جانبها الأخلاقي والاقتصادي فبين في الأولي: ما يؤول إليه الترف من تفكيك الأخلاق وركود الهمة ينعكس بالضرورة على مسيرة الحضارة ويأذن بتوقف تدفقها الإبداعي وبالتالي انحلالها ودمارها.

(١) صحيح أخرجه أحمد (٢٩/٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ١٦٦.

(٣) المعجم الوسيط، ص ٨٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠.

(٥) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٨.

(٦) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الفيلسوف المتوفى سنة ٨٠٨هـ.

اشتهر بكتابة العبر في تاريخ العرب والعجم موسوعة

وبين في الثانية: ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال التوازن بين الإنتاج والاستهلاك ومن تضخيم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلباً على التطور الحضاري العام^(١). قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ* وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) (٢).

إن الكفر أو الشرك يعني انفصال الحضارة من الدين وتحررها من سلطانه وهذا يفضي بها ولا بد إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها، عاجلاً أو آجلاً. وهذا ما يبدو جلياً في حالة الشقاء الذي يتعرض له المجتمع الكافر أو المشرك. إن تجربة الحضارة المعاصرة وصيحات مفكري تلك الحضارة ترينا الآثار التي تربت عليها على الكفر بالله أو الإشراف به. - وهي آثار هدامة- قال تعالى: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) (٣)، ومن ثم لا يمكن القول: إن الجنوح المادي الذي طالما تميزت به قوي الكفر منذ فجر التاريخ وحتى وقتنا الراهن كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها أي إيمان بالغيب أو المثل العليا.

إنما يمثل تعبيراً عن السعادة بمفهومها الشامل، على العكس فإن هذا الجنوح يمثل نقصاً كبيراً وانحرافاً خطيراً في تجربة يملأ خلاياها وشرائينها بالتعاسة والشقاء. ومهما يكن من أمر فإن الحضارة - أية حضارة - محكومة بالسنن الإلهية وهذه السنن في المجال الحضاري - كما أسلفنا- على نوعين.

سنن جزئية تتعلق بعالم الشهادة وهي سنن تعطي كل من يوظفها على قدر سعيه ولا تفرق بين مؤمن وكافر، وسنن كلية حاکمة على

(١) المقدمة ابن خلدون مرجع سابق، ص ١٨٤ وما بعدها

(٢) سورة الأنبياء الآية: ١١

(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص ٣١٤-٣١٥

هذه السنن الجزئية وهي سنة الإيمان بالله وتوحيده، وهي التي تحدد مصير الحضارات نمواً أو سقوطاً، وتعتبر جميع عوامل سقوط الحضارات تبعا لهذا العامل، أي غياب الإيمان بالله وتوحيده.

أما عن عوامل سقوط الحضارة الإسلامية فتحدث عن ذلك كل من: أ.د. عبدالله محمد الأمين ود. شعيب عبد المنعم الغباشي بحيث يري الأول أن للحضارة الإسلامية عوامل سقوط وهذه العوامل هي ^(١):

الكفر والشرك، حيث قول تعالى: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ^(٢) وقوله: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) ^(٣).

وقوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) ^(٤)، وقوله: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) ^(٥).

وقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا) ^(٦).

(١) الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، عبدالله محمد الأمين، الطبعة الأولى، سلسلة كتاب الأمة، ع ١٥٣ (قطر: المحرم ١٤٣٤هـ) ص ٩٨ و ١٠١ و ١٠٣ و ١٠٤

(٢) سورة البقرة الآيتان: ٣٨-٣٩

(٣) سورة طه الآيتان: ١٢٣-١٢٤

(٤) سورة نوح الآيات: ١٠-١٢

(٥) سورة النحل الآية: ١١٢

(٦) سورة الكهف الآيات: ١٠٣-١٠٥

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَّاهٍ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ^(١)، وقوله (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) ^(٢).

١- الظلم: لقوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبِّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ^(٣) وقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) ^(٤).

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) ^(٥).

وقوله تعالى: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) ^(٦)، يقول ابن تيمية: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة. .. الدنيا تدوم مع دوام العدل والكفر ولا تدوم مع والظلم والإسلام) ^(٧).

٢- ويؤكد ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ* وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا

(١) سورة النور الآية: ٣٩

(٢) سورة الأنبياء الآية: ١١

(٣) سورة هود الآية: ١١٧

(٤) سورة هود الآية: ١٠٢

(٥) سورة النساء الآيتان: ٩٧-٩٨

(٦) سورة ابراهيم الآية: ٤٥

(٧) الحسبة، ابن تيمية، ص ١٧

وَمَآنَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١). قوله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)* وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٢)، وقوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (٣). بينما يري الثاني أن عوامل سقوط الحضارة الإسلامية هي (٤):

١- الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه، مع التحذير من الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك.

٢- الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وإهمال كتب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والجمود والتعصب للآراء والأقوال، والولع بالجدل والمناظرات والمراء..

٣- الانغماس في ألوان الترف والنعيم، والإقبال على المتعة والشهوات، حتى أثّرَ على الحكام من المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم..

٤- انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى، والمماليك والأتراك وغيرهم (٥).

(١) سورة سبأ الآية: ٣٤-٣٥

(٢) سورة القصص الايتان: ٥٨-٥٩

(٣) سورة الإسراء الآية: ١٦

(٤) مدخل لتاريخ الصحافة الإسلامية، شعيب عبدالمنعم الغباشي، الطبعة الأولى، (عالم الكتب، القاهرة ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م) ص ١٨-١٩

(٥) وهذا لا يعني بالكلية أن العجم دخلوا الإسلام وتقلدوا فيه السلطة والقيادة على هذا المستوي، بالواقع والصحيح أن منهم من أحرز للإسلام الانتصارات في الميادين العسكرية والعلمية، خاصة في المجال العلمي الذي برز فيه الكثير ممن ليسوا من العرب

٥- إهمال العلوم والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خالية سقيمة، مع أن الإسلام يحثنا عن النظر في الكون واكتناه أسوار الخلق والسير في الأرض، ويأمرنا أن نتفكر في ملكوت الله..

٦- غزو الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرنا حتى سبقتنا في الاستعداد والأهبة، وأخذتنا على غرة، وقد أمرنا القرآن إلي اليقظة وحذرنا من مغبة الغفلة، واعتبر الغافلين كالأنعام، بل هم أضل..

٧- الانخداع بدسائس المتملقين من خصومنا والإعجاب بأعمالهم ومظهر حياتهم والاندماج في تقليدهم بما لا يضر ولا ينفع، مع النهي الشديد من التشبه بهم والأمر الصريح مخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة التقليد^(١)..

مضمون سنة البلاء بغواية الشيطان لمعرفة المؤمن والكافر:
(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ) أي ما كان إبليس أن يتسلط ويستولي عليهم بالوسوسة والإغواء إلا لحكمة جليلة وهي: أن نظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن من مصدق بالآخرة، قال القرطبي: لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين^(٢)، وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها فأجابوه^(٣).

(١). مدخل لتاريخ الصحافة الإسلامية، شعيب عبد المنعم الغباشي، الطبعة الأولى، (عالم الكتب، القاهرة ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م) ص ١٨-١٩ نقلاً عن مجموعة الرسائل رسالة بين الأمس واليوم، حسن البنا، بدون طبعة، (دار الشهاب، القاهرة بدون تاريخ) ص ١٣١-١٣٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء الثالث عشر، مصدر سابق ص ٢٩٣

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٣

وهذا الظلم كان وراءه الشيطان الذي هو العدو الأول للإنسان على مر الدهور، واعتبر المفسرون ذلك تحقيقاً لما وعد الشيطان من إغواء الإنسان. بقوله لأغوينهم أجمعين، قال القرطبي: لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين^(١). ومما سبق سرده في قصة سبأ يمكننا تلخيص الآتي:

- (أ) بعد أن كان قوم سبأ يحتذي بهم لما لهم من ثقافة حضارية بكل ما للكلمة من معني أعرضوا فهلكوا.
- (ب) بدل الله تعالى لهم جناتهم بجنات ذات أكل مر وقليل من النبق.
- (ج) علل الله سبحانه وتعالى سبب ذلك الزوال أنه بسبب كفرهم وإعراضهم عن ما أرسل به الرسل.
- (د) ثم سلبهم الله تعالى أهم مقومات المجتمع في كل زمان ومكان وهو الأمان والجوع حيث يقول (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)^(٢)، مع قوله: (وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ)^(٣).
- (هـ) جعلهم مضرب المثل في الفرقة والشتات لقوله (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ)^(٤).
- (و) للشيطان دور حيث ظن أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم وأقسم (وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)^(٥)، فتحقق ما كان يظنه قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه ولم يعلم الغيب^(٦).

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء الثالث عشر، مصدر سابق ص ٢٩٣

(٢) سورة قريش الآية: ٤

(٣) سورة سبأ الآية: ١٨

(٤) سورة الزخرف الآية: ٥٦

(٥) سورة الحجر الآية: ٣٩

(٦) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، بتحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الجزء الثاني والعشرون الطبعة الأولى الأولى (دار عالم الكتب، بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) ص ٦٠

(ز) ولما كان الغرض من ذكر الثقافات العظة ذكر الله سبحانه وتعالى ثقافة مبنية على التوحيد كثقافة الغدو والروح، التي تخطت قدرة البشرية ووصلت إلي الجن والريح التي تغدو ولمدة شهر.

(ح) وأخري مبنية على الباطل والشرك والزيغ والضلال والإعراض عن الحق، كحضارة سبأ وما حل بها.

مضمون عدم شكر الله وجحود نعمه:
قال تعالى: (كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ) اي قلنا لهم على لسان الرسل: كلوا من فضل الله وإنعامه، واشكروا ربكم على هذه النعم في أرض سبأ^(١).

هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة ليس بها: سباع ولا بعوضة ولا ذبابة، ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. كريمة التربة، حسنة الهواء، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم امركم بشكره ورب غفور لمن شكره^(٢)، (وَرَبُّ غَفُورٌ) اي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد^(٣). وهنا نجد أحد أهم عوامل سقوط الحضارات في الرؤية الإسلامية وهو عامل: (فَاعْرَضُوا فَأَرسلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ^(٤) اي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره، وإتباع أوامر رسله، فأرسل عليهم سيل المدمر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فأغرق بساتينهم ودورهم.

وعن الكفر والشرك، يقول تعالى: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(*) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٥)) وقوله (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى^(*) وَمَنْ

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها

(٣) صفوة التفاسير، المجلد الأول، محمد على الصابوني، مصدر سابق ص ٥٥.

(٤) العرم: الحاجز بين الشيئين قال النحاس: وما يجمع من مطربين جبلين وفي وجهه مُسَنَّة - اي حاجز - فهو العرم

(٥) سورة البقرة الآيتان: ٣٨-٣٩

أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً^(١). وقوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً*يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً*) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً^(٢).

وقوله: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)^(٣)، وقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً*الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا)^(٤). وقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)^(٥)، وقوله (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)^(٦).

قال الطبري^(٧): وحين أعرضوا عن تصديق الرسل، ثقب ذلك السد الذي كان يحبس عنهم السيول، ثم فاض الماء على جناتهم فأغرقها. وخرّب أرضهم وديارهم^(٨)، والعزم جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته، قيل المراد بالعرم المياه، وقيل: الجرد،

(١) سورة طه الآيتان: ١٢٣-١٢٤

(٢) سورة نوح الآيات: ١٠-١٢

(٣) سورة النحل الآية: ١١٢

(٤) سورة الكهف الآيات: ١٠٣-١٠٥

(٥) سورة النور الآية: ٣٩

(٦) سورة الأنبياء الآية: ١١

(٧) هو الإمام بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري ولد سنة ٢٢٤هـ وتوفي سنة ٣١٠هـ له عدة مؤلفات منها جامع

(٨) الجامع لأحكام القرآن للطبري مصدر سابق ص ٢٨٦ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٦

وقيل الماء الغزير، فيكون من باب إضافة الاسم إلي صفته مثل مسجد الجامع^(١). (وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ^(٢) أي بدلناهم بتلك البساتين الغناء ببساتين قاحلة جرداء ذات أكل مر بشع^(٣)، بإضافة أكل بمعنى: مأكول، بضم الكاف وسكونه، وترك اللام وتنوينه^(٤)، (أَكُلٍ خَمْطٍ) وهو الأراك وآكلوه البربر^(٥).

(وَأَثَلٍ^(٦) وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ^(٧) قَلِيلٍ ذَلِكَ) أي وشيء من الأشجار التي لا لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسدر. يقول الرازي: أرسل الله عليهم سيلاً غرق أموالهم، وخرب دورهم والخمط كل شجرة لها شوك وثمرها مر، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمار في بعض الأوقات والسدر معروف وقال فيه: (قليل)؛ لأنه كان أحسن أشجارهم، وقد بين الله تعالى بالآية طريقة الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار^(٨).

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٤٩

(٢) الخمط: المر البشع وهو كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله فهو خمطو قيل: هو ما ما تغير الي مالا يشتهي، واللبن إذا تغير فهو خمط

(٣) صفوة التفاسير، مصدر سابق ص ٥٥٠

(٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٧

(٥) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٥٠

(٦) اثل: الأثل: شجر لا ثمرة له، وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً، ومنه اتخذ منبر الرسول صلى الله عليه وسلم والواحدة منه: أثلة

(٧) سدر السدر: هو نوع من النباتات، وهو نوعان سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عصفة لا تؤكل، وسدر: ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول

(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠

قال تعالى : (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا) أي الجزاء الفضيعة الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم^(١)، قال مجاهد: لا يعاقب إلا الكفور، ويقول طاؤوس: لا يناقش إلا الكفور^(٢)، (وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ)؛ لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته، والكافر يجازي بكل سوء عمله^(٣). (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)، بحيث يقلون في واحدة وبيتون في أخرى، إلي انتهاء سفرهم لا يحتاجون إلي حمل وزاد وماء^(٤)، ولهذا قال تعالى: (وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) أي لا تخافون لافي ليل ولا في نهار^(٥)، حيث جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه^(٦)، حيث جعلنا السير بين قراهم وقرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلي منزل، ومن قرية إلي قرية. (سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِيً وَأَيَّاماً آمِنِينَ) أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متي شئتم لا تخافون. يقول الزمخشري: كان الغادي منهم يقل في قرية والرائح يبيت في قرية إلي أن يبلغ الشام، لا يخافون جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، ولا يحتاجون إلي حمل زاد ولا ماء، وكانوا يسيرون آمنين لا يخافون شيئاً^(٧). (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٧ و صفوة التفاسير، مصدر سابق ص ٥٥١

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص ٢٥٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء الرابع عشر، (المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م) ص ٢٨٨

(٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٧

(٥) المصدر السابق الصفحة نفسها

(٦) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٥٠

(٧) الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل للزمخشري، الجزء الثالث (مكتبة مصر - القاهرة) ص ٤٤٥

وفي قراءة بعد، بكفرهم^(١)، وطلبوا ذلك ليتناولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء فبطروا النعمة^(٢).

دلالة غواية الشيطان:

إلا أن الله تعالى ذكر السبب في ضلالهم فقال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)، ولقد صدق بالتخفيف والتشديد، أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين.

حيث ظن أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم وأقسم (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)^(٣)، فتحقق ما كان يظنه قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه ولم يعلم الغيب^(٤). (إلا) بمعنى لكن، وللبيان فإن المؤمنين لم يتبعوه^(٥)، لأن الله تعالى وعد الإنسان بقوله: (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَحْجِبُ الْإِنْسَانَ عَنِ التَّوْبَةِ مَا لَمْ يَغْرِغِرْ بِالْمَوْتِ وَلَا يَدْعُونِي إِلَّا أَجْبَتْهُ، وَلَا يَسْأَلْنِي إِلَّا أُعْطِيَتْهُ، وَلَا يَسْتَغْفِرْنِي إِلَّا غُفِرْتُ لَهُ)^(٦)، وهذا الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) أي ما كان إبليس أن يتسلط ويستولي عليهم بالوسوسة والإغواء إلا لحكمة جليلة.

وهي: أن نظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن من مصدق بالآخرة، قال القرطبي: لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق ص ٢٥٠

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٨

(٣) سورة ص الآية: ٨٢

(٤) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، بتحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الجزء الثاني والعشرون الطبعة الأولى (دار عالم الكتب، بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) ص ٦٠

(٥) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، مصدر سابق ص ٦٠٩

(٦) صحيح أخرجه أحمد (٢٩/٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤)

والترزيين^(١) ، وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه^(٢) .

المطلب الثاني: مضمون تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم واعتداد المشركين بأموالهم وأولادهم يوم القيامة (٣٧-٣٤)^(٣) :

مضمون تسليّة النبي صلى الله عليه وسلم واعتداد المشركين بأموالهم وأولادهم ، وأنها لن تغني عنهم من الله شيئا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبا ٣٧-٣٤] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴾ وما بعثنا في قرية من القرى من رسول يخوفهم عذاب الله إلا قال المنعمون فيها من أصحاب السلطان والجاه والمال إنا بما بعثتم به أيها الرسل كافرون . ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ [سبا ٣٥] ، وقال أصحاب الجاه هؤلاء متبجحون مفتخرون نحن أكثر أموالاً منهم وأولاداً وما زعمتم من أننا مُعَذِّبُونَ لكذب فلسنا بمعذبين في الدنيا ولا في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمَ الْغُيُوبِ ﴾ قل يأيها الرسول لهؤلاء المغرورين بما أوتوا من النعم ربي يوسع الرزق لمن يشاء اختباراً له أيشكر أم يكفر ويضيقه على من يشاء ابتلاء له أيصبر أم يستخف ؟ ولكن معظم الناس لا يعلمون ان الله حكيم ، لا يُقدر امراً إلا لحكمة بالغة ، علمهما من علمها وقبّلها من قبلها ... قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ [سبا ٣٧] .

وليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها هي التي تقودكم إلى رضوان الله ، لكن من آمن بالله وعمل صالحاً حاز الأجر المضاعف

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء الثالث عشر، مصدر سابق ص٢٩٣

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، مصدر سابق ص٢٥٣

(٣) مصحف القيام مع التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم، الشيخ فياض وا.

طلال بشار مصدر سابق، ص٧٨

فالأموال تغريه بإنفاقها في سبيل الله . والأولاد بدعائهم له ، فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات لهم ثواب مضاعف لما عملوه من حسنات ، وهم في المنازل العليا من الجنة آمنون من كل ما يخافونه من العذاب والموت وانقطاع النعيم .^(١)

الخاتمة وفيها النتائج والتوصيات:

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أزكى البرية، محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية. أما بعد: فبعد استعراض "المضامين التفسيرية لقصة سبأ وسيل العرم (سورة سبأ من خلال الآيات (١٠-٣٧) نخلص إلى التالي:

أولاً: أهم النتائج:

- ١- مظاهر دلالة الثقافة الإسلامية، ومضمون التسخير للأدوات والوسائل لتسيير الحياة دلت على عالمية الثقافة التفسيرية الإسلامية.
- ٢- يعتبر مضمون التشييد والعمارة وأدوات التحضر، من المضامين التفسيرية الدالة على السعي لإعمار الأرض.
- ٣- من المضامين التفسيرية دلالة عدم معرفة الجن للغيب، ونفي علمهم مكان وزمان قبض أرواح الأنبياء.
- ٤- الترف مبعد عن الإذعان للحق والانقياد له .

ثالثاً: أهم التوصيات:

- ١- على الدعاة والمفسرين الاهتمام بدراسة المضامين التفسيرية لقصة سبأ وسيل العرم؛ نعم الله تعالى على داوود وسليمان عليهما السلام، مضمون القوة والمنعة والفضل، مضمون ثقافي لفظي للاتصال.
- ٢- معرفة ودراسة السنن الكونية ومضامينها التفسيرية في قيام وزوال الحضارات للاستفادة منها في الحضارة الإسلامية .

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم تأليف : نخبة من العلماء ، دار المختصر

للنشر والتوزيع ١٤٤١هـ ط ٦ ص ٤٣٢

- ٣- التمسك بجوهر المفهوم القرآني لما فيه عبر ودروس وحكم مستنبطة في الإدارة الإسلامية التي ارتضاها الله عز وجل للبشرية جمعاء.
- ٤- لا بد لمؤسسات التعليم العالي من تكوين أجسام علمية إدارية مختصة بالرؤية الإسلامية في الشهود الحضاري الإسلامي وتكون هذه الأقسام ضمن النظم الإدارية والإشرافية للمؤسسات الدعوية.
- ٥- على الباحثين في علم التفسير العمل على إثراء المكتبات الإسلامية وفق الهدي النبوي الإسلامي.
- ٦- إنشاء قاعد بيانات على الشبكة العنكبوتية في جميع المؤسسات الدعوية بأقسامها المختلفة حتى يستطيع الباحثون من الاطلاع على أحدث الدراسات التأصيلية للاستفادة منها في التربية والحكم الرشيد.
- ٧- توفير التمويل اللازم لتنفيذ خطط وبرامج ودراسات المؤسسات في هذا الشأن.
- ٨- تنشيط المزيد من المؤتمرات المتخصصة في علم التفسير من خلال تشجيع الباحثين المسلمين خاصة إذا كانوا من الأقليات المسلمة.

رابعاً: قائمة لأهم المراجع والمصادر:

١. القرآن الكريم.
٢. أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها، محمد عاصم الحداد (بيروت، دار العربية بدون تاريخ).
٣. سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، سلسلة الرسائل الجامعية (٤)، ط١ (بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٩٣م).
٤. ما بين الثقافة والحضارة، د. محمد مضوي سليمان محمد أحمد، بدون رقم الطبع (دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، أمدرامان ٢٠١٠م).
٥. الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، عبدالله محمد الأمين، الطبعة الأولى، سلسلة كتاب الأمة، ع ١٥٣ (قطر: المحرم ١٤٣٤هـ).
٦. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، بتحقيق احمد الصاوي المالكي.
٧. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام بركة، د. أحمد شعبو، ط١ (دمشق: دار الفكر ١٩٨٨م).
٨. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م)؛ ميلاد مجتمع، ط٣ (دمشق: دار الفكر ١٩٧٧م).
٩. محمد محمد امزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، سلسلة الرسائل الجامعية (٤)، ط١ (أمريكا، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م).
١٠. مفاهيم الإيصال في القرآن الكريم ودلالاتها، محمد صديق الزين علي، الطبعة الأولى (مطابع السودان للعملة المحدودة - السودان -، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
١١. تفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، بتحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الجزء الثامن عشر، الطبعة

- الأولي، (دار عالم الكتب، بيروت ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
١٢. صحيح البخاري الجزء الأول، كتاب الشروط باب مالا يجوز من الشروط في النكاح حديث، مكتبة الصفا).
١٣. لسان العرب لابن منظور الجزء الثالث، (دار إحياء التراث العربي بيروت).
١٤. مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية محمد على ضناوي، الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية.
١٥. الثقافة الإسلامية في مواجهة العولمة عبد الرحمن إبراهيم محمد الفكي، ط١، (الخرطوم: جامعة أم درمان الإسلامية، ٢٠٠٨م).
١٦. مصادر المعرفة الإسلامية، عبدالله محمد الأمين وجمال شريف، جامعة السودان المفتوحة، الوحدة الأولى والثانية.
١٧. تفسير ابن كثير، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الجزء السادس، الطبعة الأولى، (مكتبة الإيمان، المنصورة ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).
١٨. تفسير البحر المحيط لأبي حيان، المجلد السابع الطبعة الثانية (دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
١٩. تفسير البحر المحيط لأبي حيان، المجلد السابع الطبعة الثانية (دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م).
٢٠. تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، المجلد السابع، الطبعة الثانية دار الفكر بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٢١. تفسير الجلالين للإمامين، (دار المنار، القاهرة ٢٠٠٠م).
٢٢. التفسير الميسر، نخبة من العلماء، الطبعة الأولى، (مركز الفجر للطباعة، القاهرة ٢٠٠٨م).
٢٣. تفسير ابن كثير بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد الجزء السادس الطبعة الأولى، (مكتبة الإيمان، المنصورة- مصر ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م).

٢٤. تفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، بتحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الجزء الثامن عشر الطبعة الأولى، (دار عالم الكتب، بيروت ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م).
٢٥. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق خليل الميس، الجزء الثالث (دار القلم، بيروت).
٢٦. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي الجزء الثالث عشر، (دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).
٢٧. الصحو الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الثانية (مكتبة وهبة، القاهرة ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م).
٢٨. صحيح البخاري (٢٨٦٢)، ومسلم (١٧٥٧).
٢٩. صحيح مسلم، الجزء الثاني، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).
٣٠. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بتحقيق الألباني، الجزء السادس، الطبعة الأولى (دار البيان، القاهرة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
٣١. النظام الإلهي للرقى والانحطاط محمد تقي إمام، ترجمة: مقتدي حسن الأزهرى، الطبعة الأولى (دار الصحو للنشر، القاهرة، ١٩٨٨م).